من ذكريات الحركة القومية العربية

تفضـــل الأستاذ الجليل الأمير مصطفى الشهابى فأذن لى بنشر هذا الفصل الرائع من تاريخ الحركة القومية العربية ، فله من قراء هذه المجلة أجزل الشكر وأطيب الثناء .

محمد شفيق غربال

حلقة الشيخ طاهر الجزائرى :

كانت دمشق فى النصف الثانى من القرن الماضى غارقة فى سبات عميق يحرص عمال الترك على ألا يوقظوها منه . لما فى يقظتها وطموحها إلى المجد من أضرار تلحق بحكمهم الاستبدادى ، وبتسلطهم الاستعمارى على بلاد العرب .

ونجد أنه عند ما كان مدحت باشا والياً على الشام برز فى دمشق رجل نابغة فى علمه وتفكيره ونشاطه وإخلاصه وهو الشيخ طاهر الجزائرى . لقد كان الشيخ طاهر ضليعاً بالعلوم العربية والدينية ، ومجيداً للتركية وعارفاً للفارسية ، ومطلعاً على مجمل العلوم العصرية . وكانت له صلة صداقة برئيس ديوان الولاية التركى واسمه بهاء بك ، ففى أحاديث الشيخ معه أقنعه بضرورة افتتاح مدارس حكومية تدرس العلوم بالعربية ، وتعنى بتدريس آداب هذه اللغة . واحتج لرأيه هذا بأن مدارس الإرساليات الأجنبية من بروتستانتية وكاثوليكية كلها تدرس العربية وآدابها ، خلافاً لمدارس الحكومة العثمانية . فإذا طالت هذه الحال نشأ فى المدارس الأجنبية نشء له تفكير خاص ومذاهب سياسية لا تسر الدولة . ولذلك يجب مقاومة هذه النزعات بالطريقة التى يتبعها الأجانب .

كان بهاء بك ، فاضلا واسع التفكير ، سرعان ما اقتنع بصحة هذا الرأى ، وأقنع الوالي مدحت باشا باتخاذ الأساليب الآيلة إلى تحقيقه . وكان مدحت باشا هو صاحب الدستور الأول والملقب بأبى الأحرار العثمانيين وكان مشهوراً بحبه للحرية وبمساعيه لإصلاح شئون الدولة .

وعين الشيخ طاهر مفتشاً عاماً للمعارف فى الولاية . ولكن مدحت باشا عزل فى ذلك الحين (١٢٩٥هـ) وبقى رئيس ديوان الولاية فى منصبه . فاستقر رأيه مع الوالى الجديد ، حمدى باشا ، على أن يتم تحقيق الفكرة المتفق عليها مع الشيخ طاهر على أساس إنشاء جمعية سميت « الجمعية الخيرية » تكون شبه رسمية . وتعينها الحكومة بالمال ، ويخصص لها أبنية وقفية وحكومية تفتتح فيها المدارس ، ويكون لها مطبعة تطبع الكتب التى تنهض بالمعارف ، ولا سيما الكتب المدرسية باللغة العربية .

واستطاع الشيخ أيضاً أن يحقق أمنية من أعظم أمانيه وهى جمع الكتب الموقوفة على المساجد والمدارس فى قبة الملك الظاهر بدمشق فتألفت من تلك الكتب نواة المكتبة الظاهرية التى تتبع اليوم المجمع العلمى العربى . وقد جمع فيها منذ أيام الشيخ ، بضعة آلاف من المخطوطات العربية النفيسة ، وفيها اليوم غرف للبحث والمطالعة .

ولم تستسغ حكومة السلطان عبد الحميد فى اسطنبول قيام نهضة عربية يستعان فيها بسلطة الدولة وبأموال خزانتها ، فألغت مفتشية المعارف ، وعرقلت أعمال الجمعية الخيرية . ثم عادت بعد بضع سنوات فعينت الشيخ طاهراً مفتشاً لدور الكتب فى الشام ، ثم اتهمته بالاشتراك فى إذاعة نشرات كانت جمعية « تركية الفتاة » تذيعها للطعن باستبداد السلطان عبد الحميد ، فنزح الشيخ إلى مصر ملجأ الأحرار .

وفى تلك المدة التى قضاها الشيخ طاهر الجزائرى بالشام ، فى السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الخمس الأولى من القرن

العشرين كانْ يتحلق حوله فى دمشق صفوة المتعلمين والنبهاء والمفكرين العرب ، فتألفت من جماعهم أكبر حلقة أدبية وثقافية كانت تدعو إلى تعلم العلوم العصرية ، ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمى وآداب اللغة العربية ، والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية ، والأخذ بالصالح من المدنية الغربية[1] . ومن الثابت عند العارفين أن هذه الحركة التى نشأت منذ تأسيس الجمعية الخيرية ، وأخذت تتشعب وتتسع فى الحلقة المذكورة ، تعد أقدم أساس وأوسع ركن قامت عليه النهضة الأدبية والعلمية فى عاصمة الأمويين .

ومن الطبيعى أن يتولد فى هذه الحلقة الأدبية وخارجها شعور قوى بالوضع السيء الذى كانت عليه شعوب الدولة العثمانية عموماً ، والشعب العربى فيها خصوصاً . وقد نتج عن هذا الشعور قيام حلقة أو جمعية سرية سياسية فى دمشق مؤلفة من أعضاء عرب وأتراك[2] ، هدفها السعى للقضاء على استبداد السلطان عبد الحميد وحكمه المطلق ، بجعل الحكم شورى فى الدولة ، أى بنشر الدستور المعلق . وكان لأفراد هذه الجمعية اتصال سرى برجال «تركية الفناة» الذين قاموا فيما بعد بثورة سنة ١٩٠٨ ، وانتهوا فى السنة التالية إلى خلع ذلك السلطان .

وذكر لى الأستاذ فارس الخورى وغيره من الأعضاء العرب فى الجمعية أنه كان هم فيها ، وفيما بينهم ، خطة خاصة وهى العمل على إبلاغ عرب الدولة حقوقهم ضمن الرابطة العثمانية .

---

(١) كان من الرجال الأول فى هذه الحلقة علماء مصلحون ومؤلفون معروفون كالشيخ جمال الدين القاسمى ، والشيخ عبد الرازق البيطار والشيخ سليم البخارى وغيرهم ، ثم التحق بها عدد كبير ممن كانوا دونهم فى السن منهم رفيق العظم ومحمد كرد على وفارس الخورى وعبد الحميد الزهراوى وشكرى العسلى و عبد الوهاب المليجى وعبد الرحمن الشهبندر وسليم الجزائرى ، واشتهروا جميعاً فيما بعد بأعمالهم العلمية والسياسية .

(٢) كان فى هذه الحلقة السرية ضابطان عربيان من الأركان هما سليم الجزائرى وأسعد درويش الطرابلسى ، وفيها من العرب المدنيين فارس الخورى وشكرى العسلى وعبد الوهاب المليحى « عبد الوهاب الإنكليزى » وغيرهم ، ومن الأتراك أمير اللواء بدرى بك ومدير المعارف حسين عوفى بك .

حلقة دمشق الصغيرة وجمعية النهضة العربية :

بعد هذه الإلمامة بالحركة الأدبية والسياسية فى ذلك الزمن ، آن لنا أن نتكلم قليلا على حلقة سياسية سرية مجهولة[1] تألفت بدمشق فى سنة ١٩٠٣ من الميلاد . وكانت أعمالها بلا مراء من أجل الأعمال القومية الواعية المنظمة ، ومن أكبرها تأثيراً فى جميع الحركات القومية العربية التالية التى كانت مغبتها استقلال الأقطار العربية عن الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨ م) .

فقد كان فى الصفوف (الفصول) الأخيرة من مدرسة الحكومة الثانوية بدمشق ، وفى خارج تلك المدرسة ، شبان نبهاء فى ميعة الصبا يتردد بعضهم على حلقة الشيخ طاهر الجزائرى ، ويصغون فى انتباه وتواضع إلى ما كان يدور فيها من أحاديث ومحاورات فى اللغة العربية وقواعدها وآدابها ، وفى حضارة العرب والإسلام ، وفى ذلك التراث العلمى العظيم من المخطوطات التى خلفها لنا الأجداد وفى الجهل الضارب أطنابه بالبلاد العربية ، وفى الوسائل التى يجب التوسل بها لرفع مستوى التفكير والتعليم جميعاً الخ .

وسرعان ما نتج عن اتصال هؤلاء الشبان بحلقة الشيخ ، واتصال بعضهم ببعض ، ظهور نزعة قومية عربية فيهم ، فراحوا يفكرون ويتناقشون فى الخفاء فيما كان للعرب من أوضاع سيئة فى دولة تتنكر للغتهم ولقوميتهم ، على حين أنهم كانوا أكثر من نصف سكان تلك الدولة .

وما عتموا أن ألفوا حلقة خاصة نعتت بحلقة دمشق الصغيرة ، تمييزاً لها من حلقة دمشق الكبيرة ، أى حلقة الشيخ طاهر الجزائرى ، وكان محب الدين

---

(١) أشار إليها محب الدين الخطيب فى مجلة « الزهراء » التى كان يصدرها فى القاهرة (م ٢ ص ٤٢٠) ، وذكر لى شيئاً كثيراً عنها ، وما زلت أحتفظ بدفاتر لأخى عارف الشهابى تشتمل على مسجلات ومراسلات نثرية وشعرية لبعض أعضائها .

الخطيب لولب الحلقة الصغيرة ، وأكثر شبابها اتصالا بالشيخ وحلقته[١] . وكان الهدف الظاهر لهؤلاء الشبان فى حلقتهم مدارسة تاريخ العرب وقواعد اللغة العربية وآدابها ، وتأسيس غرف للمطالعة . ومدارس أهلية لنشر العلم وأسس القومية . أما هدفهم الخفى فقد كان بعث العروبة من رقادها بتلقين شباب العرب الوسائل المؤدية إلى هذا البعث . وكانوا على صغر سنهم بعيدى النظر يرون أنه لا بد من مرور زمن طويل . فى عمل متصل منظم ، قبل أن ينشأ فى جمهرة العرب وعى صحيح ، وقبل أن ترسخ فى نفوسهم نزعة قومية ترتكز على الإيثار والتضحية . ولذلك كانوا يقتصرون فى دعوتهم السرية على برنامج سياسى محدود . وهو مطالبة الدولة العثمانية باتخاذ نظام لامركزى يضمن للعرب حقوقهم فى الحكم ، ويجعل لغتهم فى الولايات العربية لغة رسمية فى مدارس الحكومة ودواوينها ومحاكمها .

وأخذ هؤلاء الشبان ينشرون دعوتهم فى السر ويضمون إلى حلقتهم النابهين من شباب دمشق . ثم انتقل بعضهم إلى بيروت ، فراحوا يتصلون بمن كانوا يتوسمون فيهم الاستجابة لمبادئهم من طلاب الكلية الأمريكية وكلية الشيخ عباس الأزهرى على الأخص .

وفى سنة ١٩٠٥ من الميلاد انتقلوا للدراسة فى مدارس اسطنبول العالية ، فوجدوا فيها عدداً كبيراً من الطلاب العرب كان معظمهم ضعفاء فى اللغة العربية ، جهلاء بآدابها وبتراثها العلمى ، أذهانهم خالية من الفكرة القومية ، خائفين من أن يتهموا بنزعة عربية ، مؤثرين التكلم بالتركية ، متباهين بالتحدث مع الشبان الأتراك بلهجة رقيقة اسطنبولية يلفظون فيها العين ألفاً ، والحاء هاء ، والقاف كافاً وهلم جرا .

---

(١) كان من أعضاء الحلقة البارزين محب الدين الخطيب وعارف الشهابى وعثمان مردم ولطفى الحفار وصالح قنباز وصلاح الدين القاسمى . وعندما أصبحت الحلقة « جمعية النهضة العربية » دخل فيها شبان ينتمون إلى أسر مختلفة وأطلعنى محب الدين الخطيب على مذكرات له يقول فيها : « وأنبه شباب الحلقة وأعلاهم قدراً فى نظرى عارف الشهابى » .

لقد هال هذا الوضع شبابنا القوميين من حلقة دمشق الصغيرة ، فاتفق محب الدين الخطيب وعارف الشهابي على أن يتطوعا لتعليم هؤلاء الطلاب اللغة العربية وآدابها ، في يومين أو ثلاثة أيام من كل أسبوع ، على أن يبثا فيهم فكرة القومية العربية في حذر وتؤدة . وسرعان ما اقتسما النهار من الطلاب ، وراحا يدرسانهم ، ويجلبان لهم من مصر مجلة المقتبس التي كان يصدرها الأستاذ محمد كرد علي ، ومجلة المقتطف وجرائد اللواء والمؤيد والأهرام وغيرها ، وكلها كان دخولها محظوراً ، فكانت ترسل إليهم بالبريد الأجنبية[1].

وفي السنة نفسها أسسا في اسطنبول ، ومعهما عبد الكريم قاسم الخليل وشكري الجندي ، « جمعية النهضة العربية » ، على أن يكون مركزها الثابت في دمشق حيث كان رفاقهم في الحلقة الصغيرة . وانتخب محب الدين الخطيب رئيساً لها في اسطنبول ثم في دمشق . ولعل هذه الجمعية الوطنية السرية تعد أول جمعية قومية عربية منظمة نشأت في أوانها ، فكان لها أكبر تأثير في بث الشعور القومي الواعي في شباب العرب . قبيل إعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد .

ومما لا مرية فيه أن أعمال هذه الجمعية ، أو قل أعمال حلقة دمشق الصغيرة ومن انضم إليها من شباب العرب كانت تصدر كلها عن عقيدة وطنية راسخة ، وخطط محكمة ، وشعور بالتبعة . وأن اتصال هؤلاء الشباب برفاقهم في اسطنبول واتحاد الشام وسع مجال الحركة القومية ، وكثر عدد رجالها العاملين الذين أسسوا بعد الانقلاب العثماني ، المنتدى الأدبي . وجمعية « العربية الفتاة » ، وجمعية « العهد » ، وعقدوا المؤتمر العربي في باريس ، وشاركوا في الثورة العربية الخ . وهؤلاء الرجال هم الرعيل الأول الذين لهم الفضل الأكبر في

---

(١) مما أذكره أنني عند ما ذهبت مع أخي عارف الشهابي تلميذاً في السنة المدرسية ١٩٠٧ – ١٩٠٨ والسنة المدرسية ١٩٠٨ – ١٩٠٩ دخلت مباءته ، وتلقيت فيها درساً في قواعد العربية وآدابها ، وفي تاريخ العرب وحضارتهم ، واستمعت إلى أحاديث في القومية العربية ونزعاتها ، وفي الوسائل الواجب اتخاذها للنهوض بالأمة العربية إلى صفوف الأمم الحية المستقلة .

إيقاظ الشعوب العربيةمن سباتها ، وفى توجيه الحركات الوطنية فى الأقطار العربية التابعة للدولة العثمانية . وهم الذين داوموا على الكفاح بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤—١٩١٨ م)، ووجهوا كفاحهموجهةالاستعمار الفرنسى والإنكليزى فى بلاد الشام والعراق حتى استقلت . وقد هلك منهم عشرات فى سبيل هذا الهدف القومى السامى . وما زال منهم بقية على قيد الحياة .

ولم يتناول أحد حلقةدمشق الصغيرة وجمعية النهضة العربية بالبحث الدقيق على ما كان لهمامن تأثير كبير فى الحركات القومية . ولكى نعرف شيئاً عن الوطنية التى كانت تتأرجح فى صدور أعضائها ، هاكم أبياتاً من قصيدة طويلة لعارف الشهابى نظمها فى فروق« اسطنبول » فى السابع عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٢٥(١٩٠٧م) أى فى زمن السلطان عبد الحميد ، ومى موجهة إلى الأمة العربية ، ومكتوبة بخطه فى دفتر كان يجمع فيه قصائده . وأشاد فى هذه القصيدة بمجد العرب وسؤددهم وحضاراتهم فى الماضى ، ونددد بجهلهم وخنوعهم للأجنبي فى الحاضر ، وأشار إلى عدد من الشعوب التى نهضت من كبوتها واستقلت ،وحث الأمة العربية علىالعلموتأسيس المدارس الوطنية ، والتشبث بحقوقهم الضائعة . ومما جاء فيها عن مدارس الحكومة والمدارس الأجنبية السائرة قوله :

فذى للبنين وذى للبنات تراها تلظى دروساً دروسا
يؤم إليها بعيد الشروق جموع الشباب خميساً خميسا
يسوس عقـــولهم الأجنبي كأنا على العجز من أن نسوسا
ويلقى علوما تميت النفوس ولا خير فيما يميت النفوسا
إلى أن محى ضـــوء آمالنا ولم يبق من ذاك إلا نسيسا

وختمها بالأبيات الآتية فى الحث على النهوض للمطالبة بحقوق العرب الضائعة :

بنى وطـــنى آن وقت القيام ووقت البروز ووقت الزحام

وأن نتمطى بتلك القيود وأن نطلب العيش عيش الكرام
وأن لا نؤول بأوطاننا إلى الأجنبي ونبقى نيام
وأن نرفع البؤس عن أمة تسام إلى الذل سوق السوام
أحييكم ياجنوداً جرت إلى قمم المجد جرى السهام

مصطفى الشهابي